Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكاد عاذلُنا فى الحبِّ يُغْرينا فما لَجاجُك فى لَوْمِ المحبِّينا

وهى ملاحظة صحيحة، غير أنها لا تنقص يتيمة ابن زيدون الفريدة شيئًا من روعتها الأدبية، إذ استطاع فيها أن يحلّق بأجنحته الشعرية فى آفاق الشعر العليا تحليقًا، لعل شاعرًا لم يستطع بعده أن يرتفع بأجنحته إلى السمت الذى حلّق فيه، وهى تُعَدُّ بحق آية من آيات الشعر العربى وآيات الغزل فيه خاصة، لما بثَّ فيها من حنين ظامئ لا تنطفئ جذوته. ونفس قصيدة البحترى الآنفة الذكر لا يترقرق فيها الحنين بهذه القوّة، والحنين قديم فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى، ولكن شاعرًا لم يبلغ من تصويره ما بلغه ابن زيدون فى قصيدته، وكأنما تجمعت فى صدره كل أشعار الحنين التى قرأها للبحترى وغير البحترى من سابقيه وخالفيه، ممن حنّوا إلى ديار ليلى وغير ليلى، وشعروا لمحبوباتهم بوجد ما بعده وجد، واشتاقوا لرؤيتهن شوقًا لا يفوقه شوق، وامتزج فى نفوسهم اليأس من لقائهن بالأمل، اليأس المرير بالأمل الحلو، وهن يصددن عنهم وهم لا يسلون عنهن بل يزدادون بهن تعلقًا وشغفًا، ويتعذبون عذابًا أليمًا.

ويتناول ابن زيدون من البحترى المعذب قلبه قيثارته ليتغنّى عليها حنينه وحب قلبه الملتاع، نافذًا فى تضاعيف ذلك إلى نغمات وإرنانات تكمل تعبيره وتصويره لمأساته ومحنته، فقد ضاع منه نعيم التدانى كما قال فى مطلع قصيدته، إلى الأبد، وسقط فى جحيم التنائى، ولم يعد يسعد بصفو اللقاء، بل أخذ يصطلى بنار الجفاء المحرق، وكلمات التنائى والتدانى والتجافى تتقابل فى البيت، وكأنما يتشابك إيقاعها تشابك الإيقاع فى حركات الرقص، ويمضى باكيًا:

إن الزمان الذى مازال يضحكنا أُنْسًا بقربهمُ قد عاد يُبْكينا
وانحلَّ ما كان معقودًا بأنفسنا وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما نَخْشَى تفرّقنا فاليوم نحن وما يُرْجَى تلاقينا

وكل شطر من شطور هذه الأبيات الثلاثة يقبل على تاليه، فيضحك فى الشطر الأوّل تُقِبْلُ على يبكى فى الشطر الثانى والشطران فى البيت الثانى يتّحدان فى عدد الحروف وحركاتها وسكناتها، وكأن الكلمات فى الشطرين تقوم على صفّين